الإنسانُ خَلقًا وتكليفًا ومآلاً

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٥/١م

فيما يُحكى من الحكايات أن رجلاً عجوزًا حمل في يده مصباحًا ومشى باحثًا في الظلام، فقالوا له: عن أي شيء تبحث؟ فأجابهم: أبحث عن الإنسان، قالوا: هذا من المحال، فأجابهم: وأنا أبحث عن هذا المحال.

وكأن هذا الشيخ العجوز يعود إلى عصرنا هذا مرّة ثانية، ويحمل في يده المصباح باحثًا عن الإنسان في زمنٍ صار الإنسان فيه نادرًا.

الإنسان بإمكاناته العقلية المنفتحة، واستعداداتِه الجسدية المتميزة، وتفوّقه الروحيّ الذي يتجاوز به حدود السماوات والأرض، وقلبِه الرحيم الذي يفيض رحمة وخُلُقًا... أليس هذا الإنسانُ نادرًا في هذا العصر الذي أصبحت البشرية فيه تسير إلى الانحدار في هاوية فوضوية أصبحت فيها أضل من الأنعام؟

من أجل هذا أردت أن أُمسك المصباح، لكنني لا أرى غير القرآنِ مصباحًا، وأردت أن أبحث عن الإنسان، لكنْ مِن مصباح القرآن، ومن خلال تنوير القرآن للباحث.

والقرآن الكريم أورد ذِكرَ الإنسان مرّاتٍ عديدة، وأردت أن أقدم في هذه العُجالة مختصرًا يتحدث من خلال بعض المقتبسات التي أقتبِسها من نصوص القرآن الكريم، مصنِّفًا هذا الموضوع إلى أقسامٍ ثلاثة:

القسم الأول: يتحدث عن خلق الإنسان.

القسم الثاني: يتحدث عن تكليف الله تعالى للإنسان.

القسم الثالث: يتحدث عن مآل هذا الإنسان.

الإنسان الذي هو القيمة الكبرى، وهو الثمرة في شجرة الكون كما يقول علماء التحقيق، والمقصود من الشجرة الثمرة، ولو كانت الشجرة متقدمة في وجودها على الثمرة، لكن المقصود من الشجرة إنما هو الثمرة.

ولئن كان الإنسان قد جاء في الترتيب الزمني آخر المخلوقات، لكنه ما جاء آخر المخلوقات إلا لأنه الثمرة في هذه الشجرة.

١ - الإنسان خَلقًا:

تحدث القرآن عن خَلق الإنسان مبيّنًا أنه خلقه من جزأين اثنين: جزء مادي، وجزء معنوي، **قال تعالى:**

- { وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } والطين أو الماء المهين كلاهما مادّيّ، ثم قال سبحانه: { ثُمَّ سَوَّاهُ } أي: أتمَّ خلقَه وصناعتَه صناعةً مادية، فالتسوية إتمام الخلق مادّيًّا، وقال بعد ذلك منبّهًا إلى الجانب المعنويّ: { وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ } وهذه كما يعلم أهل العلم نسبةُ تشريف، أي نَفَخَ في الإنسان روحًا مخلوقة، ونسبها إليه تشريفًا.

ثم قال: { وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ } [السجدة: ٧-٩] وهذه إنما هي مظاهر الخلق الروحانيّ، فلا يمكن للصناعة المادية ولا يمكن للمصنوع المادّيّ الجسديّ أن يكون له اعتبارٌ إلا حينما تُنفخ فيه الروح المعنوية التي مظاهرها السمع والبصر والفؤاد.

وأشار إلى هذا في موضع آخر في هذا الكتاب المنير فقال سبحانه: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا } ، ثم تحدث بعد مراحل الخلق الماديّ عن الخلق المعنويّ بقوله: { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرْ } وهو الخلق الآخر الذي تميز الإنسان به عن سائر المخلوقات، فجعل الله سبحانه هذا المخلوق متميزًا بين كل المخلوقات باستعداده الروحي بعد أن سواه كما قال في النص الذي سبق، { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } [المؤمنون: ١٢-١٤] وما ذكر وصفه بأنه أحسن الخالقين إلا بعد أن جعل هذا الإنسان خلقًا آخر، وأعطاه خصوصيته المعنوية الإنسانية.

وقال سبحانه: { الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } [الرحمن: ١-٤] وهاهنا وهو يتحدث عن خلق الإنسان يضيف معنىً آخر في تهيئة هذا الإنسان، فلا قيمة لهذا الإنسان إلا بالعلم، حتى مع استعداداته المادية والمعنوية، فهو محتاج إلى تعليم الله، فمِن إكمال خلقه المعنويّ تعليمه.

وقال سبحانه: { عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق: ٥].

وقال سبحانه: { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ } [البقرة: ٢٥٥].

وهكذا أصبح هذا المخلوق المتميز الإنسانُ مهيَّأً بخَلقٍ مادّيٍّ متميّز، وخَلقٍ معنويٍّ متميّز، وتعليمٍ علّمه الله إياه.

ومن خلال هذه العناصر الثلاثة أصبح الإنسان مستعدًّا للتكليف، ومهيَّأً لحمل رسالةٍ متميزة خاصة، وهاهنا ننتقل في الحديث عن تكليف الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان.

٢ - الإنسان تكليفًا:

يقول سبحانه: { إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ } [الأحزاب: ٧٢] فاستعداد السماوات كلها واستعداد الأرض واستعداد الجبال... أقلّ من أن يكون مناسبًا لحمل الأمانة التي سوف يُفصَّل معناها في موضع آخر.

فالإنسان تميَّز - بعدما هيأه الله سبحانه بالخَلق المتميّز - بالتكليف الذي هو حمل الأمانة.

وبيَّن ربُّنا سبحانه وتعالى حقيقةً مهمة، وهي أن الإنسان مع العناصر الثلاثة التي أعطاه إياها - التي هي: الخلق المادّيّ، والمعنويّ، وما تلقّاه من العلم من الله تبارك وتعالى - يبقى ضعيفًا، لأنه محتاج في كل وقت إلى ربه، ونبّه إلى هذه الحقيقة بقوله: { وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا } [النساء: ٣٨] فمهما بلغ هذا الإنسان في خلقه الماديّ، ومهما بلغ في خلقه المعنويّ، ومهما حوى من العلوم، يبقى ضعيفًا محتاجًا إلى القويّ الذي هو الله.

فالله هو القوي، والإنسان مهما تميّز يبقى ضعيفًا، ونبّهه إلى ضعفه حتى يبقى محتاجًا وحتى يبقى مستشعرًا حاجته إلى ربه، وأعان الله الإنسان في هذا التكليف الذي يكلفه به بالنظر والتفكر.

واقرؤوا على سبيل المثال قوله تعالى وهو يدلّ الإنسان على طريق النظر:

{ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا، مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ } [عبس: ٢٤-٣٢]

إنه توجيه الله تعالى الإنسانَ من أجل أن يتفكر في أنه قد سخّر له هذه المخلوقات التي تحيط به.

وهل يعقل عند عاقلٍ ناظرٍ متأملٍ أن يكون كل هذا التمييز وكل هذا التسخير عبثًا من غير تكليف؟

وهل يقبل العاقل أن يقدّم الله كل هذه الميزات لهذا الإنسان ثم يكون بعد ذلك عابثًا متروكًا؟

إن هذا يتنافى مع المنطق الذي يتبناه الإنسانُ نفسُه.

وبعد هذا عرّفه صريحًا أن قيمته - حتى وإن كان إنسانًا - مستمدةٌ من الرسالة والأمانة، وباختصار مستمدة من الدين، فالأمانة هي الدين، ولا يمكن للإنسان أن يخرج عن مفهوم هذه الأمانة إلا حينما يخرج عن مفهوم الدين، فالأمانة هي الدين، وقيمة الإنسان مستمدة من الدين ومن الأمانة، فالأمانة هي الدين.

واقرؤوا في صريح العبارة قوله تعالى وهو ينبّه الإنسان إلى قيمته:

- { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } إنه المتميّز بين كل المخلوقات.

- { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ } حينما يقف مع نـــزوته وشهوته ورغبته التي يحقق بها خدمة المادة، وينسى خصوصيته المعنوية، فيكون في أسفل السافلين، لأنه يُدبّر ويحتال من أجل أن يكون الأسفل، ويدبّر ويحتال من أجل أن يكون الأسوأ، ويدبّر ويحتال من أجل أن يسبق الوحوش في الوحشية، ويدبّر ويحتال من أجل أن يسبق البهائم في البهيمية، ويدبر ويحتال من أجل أن يسبق الشياطين في المكر، ويدبّر ويحتال من أجل أن يفترس الجميع، فيكون الأسوأ بين الجميع...

- ثم قال: { إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [التين: ٣-٦] وهذا هو الدين باختصار، فالدين: إيمانٌ معنويّ، وعملٌ صالح مادّيّ.

فقيمة الإنسان المعتبرة مرتبطة بحمله للدين، ومهما زعم مَن زعم أن له مكانة أو قيمة فإن تلك المكانة مشكوك فيها حتى يرتبط بالدين.

ينبغي أن يصحو العالم إلى هذه الحقيقة، وينبغي أن يتنبه العلمانيون إلى هذه الحقيقة.

الإنسان ترتبط قيمته بالدين، ومهما أرادوا تهميش الدين، ومهما أرادوا إبعاد الإنسان عن الدين، ينبغي أن يصحو هذا الإنسان في نهاية المطاف، من أجل أن يعلم أن مكانته وقيمته المعنوية مستمدة من الدين.

ومهما أراد العلمانيون فصله وإبعاده عن هذا الدين فالله الذي خلق الإنسان وخلق الكون نبّه العالم كلّه إلى منـــزلة الإنسان وقيمته التي لا تعتبر إلا بالدين.

قال: { إِلاَّ الَّذِينَ آَمَنُوا } والإيمان قضيةٌ معلومةٌ لا ينتطح فيها عنـــزان، وهو الذي جاء به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل إلى العالمين كلهم، فجاء بثوابت الإيمان وحقائقه، وجاء القرآن الذي نـــزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بحقائق الإيمان.

وقال: { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } أي: الشريعة المحمدية، فالعمل الصالح ليس استحسانًا عقليًّا، إنما هو استحسان شرعيّ، فما جاءت الشريعة المحمدية به فهو العمل الصالح، وما نهت عنه الشريعة المحمدية فهو العمل الفاسد، فالقضية لا تحتاج إلى كثيرِ شرح، إذ الحلال بيّن والحرام بيّن.

وقال سبحانه:

- { وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } فالإنسان بهذا التميز الذي ملكه بين المخلوقات خاسر، إلا بشرط واحد وهو:

- { إِلاَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } فأكد ما ذكره في النص السابق، لكنه زاد شرطًا آخر، وهذا الشرط مدعم لا مكمل، فالشرط الذي به تكمُل سعادة الإنسان وترتفع به قيمته هو أن يحمل الدين، وأما المدعّم فهو:

- { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ } أي: ذكّر بعضهم بعضًا بالثبات على الدين مهما حاول المنكرون زعزعته وصرفه عن طريق الدين.

- { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر: ١-٣] لأن المرغّبات الصارفة والمرهّبات كثيرة، فلابد له أن يصبر، فقد يُحرم بسبب تمسكه بالدين رغباتٍ كثيرة، وربما مارس عليه أعداء الله ممارسات مؤذية ومزعجة، وها هنا يأتي التواصي بالحقّ والصبر مدعّمًا، فشرط ارتقائك أيها الإنسان: أن تحمل ثوابت الدين، والمدعم لثباتك: { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } .

فالتكليف يعني دخول الإنسان في عمل متواصل، إذ لا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه.

وإذا توهمت أيها المسلم المؤمن أنك ترتاح في الدنيا فأنت واهم، فقد قال الله لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ } [الشرح: ٧] فلا يمكن لك أن تذوق الراحة حتى تلقى وجه ربك.

وقرر القرآن هذه الحقيقة في قوله سبحانه: { يا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ } [الانشقاق: ٦] وهذه عبارة مختصرة يقررها القرآن، والكدح الذي يكون فيه الإنسان كادحًا يعني بالضبط قوله: { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ } .

لا راحة للمؤمن حتى يلقى ربه، فهو في تكليف مستمرّ، ولا تتوهموا أيها الشباب أن الدنيا دارُ مُتعة، ولا تتوهموا أنها دار لذّة، بل إنها دار الكدح، ودار النَّصَب.

سترتاحون وتتلذذون في جنة عرضها السماوات والأرض، ولا راحة لكم في الدنيا إن كنتم تحملون الأمانة.

وها هو سبحانه ينبّه الإنسان إلى الجانب النفسانيّ الذي تتحرك فيه نفسه، فهناك في التكليف جانبان: ماديّ عمليّ، وتهذيبيّ، وأشار إليه بقوله: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس: ٩-١٠] فلم يكن التكليف ماديًّا حركيًّا فقط، إنما كان جزأين: عمليّ وتهذيبيّ، لأن النفس الإنسانية تنازع الإنسان.

وهكذا نجد في جزئياتٍ في الخطاب الربانيّ القرآنيّ تنبيهًا إلى هذا التهذيب.

واقرؤوا على سبيل المثال: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } إنها مشكلة وسوسة نفسه، فلا تتوهم أن القضية وسوسةُ الشيطان، وقد قال أهل العلم: "النفس أشد على الإنسان من سبعين شيطانًا" فأمامك مشكلة كبيرة، وهي أن نفسك توسوس لك وتدفعك إلى رغباتها، لكنه في نفس الوقت نبّهك إلى الدواء بقوله: { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [ق: ١٦] فهو أقرب من نفسك.

فنفسك أبعد إليك من ربّك، وربّك أقرب إليك من نفسك، فتمسك بالأقرب واترك الأبعد.

ثمّة مشكلة أمامك، وهي وسوسة نفسك، وهواجسها التي تحرفك وتسوقك إلى الرغبات.

واقرؤوا من تفصيلات القرآن في وسوسة النفس وهواجسها وسوقِها للإنسان إلى الحضيض قوله:

- { وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا } [الإسراء: ١٠٠] أي: بخيلاً لا يحب الإنفاق، والله يحب الإنفاق، قال تعالى: { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } [البقرة: ٢٦٨] وتتعاون النفس والشيطان.

- { وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [الكهف: ٥٤] إنه من أجل تحقيق رغبات نفسه يجادل لعله يخرج من التكليف.

- { وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ } أي: يطلب الشر كما يطلب الخير، وما هذا إلا لضياع نفسه في رغباتها، فنفسه تطلب منافعها وربما تنصرف عن الميزان الذي يدلها على النافع والضار.

{ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً } [الإسراء: ١١] هذه تركيبات النفس.

- { إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } والهلع هو الذي يكون فيه الإنسان في حالة من القلق.

{ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } أي: يكثر حزنه وتكثر همومه وكآبته.

تضطرب حالته النفسية حين يكون قاصرًا عن ملاحظة القريب الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد، وحينما لا يثق بالله ولا يثق بما عند الله.

{ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } تجد أنه عندما تكثر المادة في يده يصبح منوعًا، وعندما يُصاب بشدةٍ يكون هلوعًا في حالة من القلق، وعندما تصيبه المصيبة يكون هلوعًا في شدة الحزن.

{ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ } [المعارج: ١٩-٢٣] ورحم الله ذلك العارف الذي قال: "هذه الآية تنبه إلى صلاة الروح"، فصلاة الروح دائمة، أما صلاة الجسد والصورة فهي مؤقتة، والله يقول في هذه الآية: { إِلاَّ الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ } وكيف تكون الصلاة دائمة إلا حينما تكون الصلاة صلاة روحك؟ أما صلاة جسدك فمؤقتة ولها أوقات، وفيما سوى هذه الأوقات تنصرف عن صورة الصلاة إلى الصور الأخرى، لكن روحك تبقى مصلية، قال تعالى: { رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ } [النور: ٣٧] فهو يبيع ويشتري وروحه مصلية.

وقال سبحانه: { إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } أي يكفُر النعمة ولا يعترف بالمنعم، { وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ } فهو يشاهد كفران نعمته ويصر عليه، { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } [العاديات: ٦-٨] كلما أعطيته من المادة طلب أكثر.

وقال تعالى: { وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ } [يونس: ١٢] وهذا حال الأنصاف، فعندما يصاب بالمصيبة يُهرع إلى الصلاة والدعاء، وعندما تذهب المصيبة عنه يعود إلى نفسه، فعندما يقع في المصيبة يُهرع إلى من هو أقرب إليه من حبل الوريد، وإذا زالت عنه المصيبة ترك من هو أقرب إليه من حبل الوريد وذهب إلى نفسه الموسوسة.

وقال سبحانه: { كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى } [العلق: ٦-٨] فحين يرى الأسباب المادية أصبحت في يده يستغني عن ربه، وما علم أن الذي أغناه وأقناه وأن الذي أضحكه وأبكاه إنما هو الله، فسرعان ما يستغني بالمادة عن خالق المادة، ويستغني بالرزق عن الرزاق.

وقال سبحانه: { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ } ومعنى نأى بجانبه: أي أعرض مستكبرًا وتكبر، أما تجد كيف يعرض عنك من تكبر عليك؟!

يكون مخاطبًا لك، فإذا أراد أن يهينك أو يحتقرك كلّمك وهو معرض عنك وهو ملتفت عنك.

{ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا } [الإسراء: ١٣] يقنط من رحمة الله ولا يثق بفضل الله تعالى.

ولم تأت في القرآن آية بصريح: { وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ } إلا بوالديه.

يا سبحان الله!

انظروا إلى حال الدول الغربية المادية اليوم، وكم تكثر عندهم دور المسنين والعجزة، لأن الولد لا يتحمل خدمة أبيه، بل لا يتحمل معاملة أبويه.

أما الإسلام فلا يفتح دُور العجزة، ولا دُور الأيتام، بل يحوّل الأيتام إلى الأُسَر، ويُلزم الأبناء بخدمة الآباء.

الإسلام أنشأ مجتمعًا إنسانيًّا، والآلة أنتجت مجتمعًا آليًّا.

واليوم لا نشاهد البشر، لكننا نشاهد الرجل الآلي.

وقبل أن يصنع الرجل الحديدي هناك رجل آلي موجود الآن ويتحرك بين الآلات، ولا يسمى إنسانًا، بل يسمى رجلاً آليًّا، لأنه منـــزوع الإنسانية.

وماذا تقولون عن الطيار الذي يرمي آلاف الأطنان على الأطفال؟ هل هذا إنسان؟

لا والله... لا يمكن أن يسمى إنسانًا.. بل ويستحيل أن يسمى إنسانًا.

قال تعالى: { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

رُئي الشافعيُّ في المنام وقد ضُمت لحيتُه باللؤلؤ، ولما أخبره الرائي بكى الشافعي وقال: نعم، لا أنام حتى أضع لحيتي تحت قدمَي أمي.

هذا سلوك السلف.

وفي دولة الخلافة العثمانية كانت السيدةُ الأولى أمَّ السلطان، وكان السلطان لا يدخل إلى مجلس الحكم حتى يدخل إلى مجلس أمه ليقبل يدها ويطلب منها الرضى والدعاء.

وقد زرت في استانبول في الأستانة مركز الخلافة (بيت السلطنة) ورأيت مكان أم السلطان، وبروتوكولات الدولة العثمانية، رحم الله آخر سلاطينها عبدَ الحميد، وإن جاء بعده سلاطين لكنه آخر خليفةٍ فِعليّ.

وكنت أقول دائمًا: لقد عُزل عامَ ١٩٠٩م، ونحن في عام ٢٠٠٩م وقد مضى مائة عام، وأنا الآن مستبشر لأن الدورة الزمنية هي مائة عام، قال تعالى: { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } [البقرة: ٢٥٩] واليوم نشهد بعث الأمة الإسلامية من جديد.

كان السلطان منذ تأسيس الخلافة يدخل إلى مجلس أمه فيقبل يدها في الصباح ويطلب منها الدعاء بالتوفيق، ويطلب رضاء قلبها، ثم يدخل إلى مجلس الحكم.

قال تعالى: { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا } [العنكبوت: ٨].

وقال: { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا } [الأحقاف: ١٥].

فطلب من الإنسان أمرين: الحسن والإحسان، والإحسانُ غير الحسن، لأن الإحسان فعل جميل، أما الحسن فهو قيمة جمالية، فطلب الله من الولد أن يكون مع والديه في الإحسان والحسن، لكن الإنسان تمرد على ربه.

وقال سبحانه: { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم: ٣٤]

وقال: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ } [النحل: ٤] فأصله نطفة، ولما أنعم الله عليه بالخلق صار مخاصمًا.

وقال: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } [الانفطار: ٦] فهو يكرمك ليلَ نهار وأنت تتمرد عليه.

وصل الإنسان في مخاصمته لربه وجاهليته أنه تطاول على ربه، فنسب إليه الولد، ونسب إليه الزوجة، ونسب إليه الشركاء... قال الله سبحانه: { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا } أي: نسبوا إليه وصف المخلوقين، { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ } [الزخرف: ١٥].

أما القسم الثالث الذي يعرضه القرآن فهو:

٣ - المآل: فقد عرض: الخَلق وعرض التكليف، ثم عرض **قضية المآل** لينبه الإنسان إلى أن الدنيا التي يعيش فيها ممرٌّ وليست دارَ المقرّ، ولكن الإنسان يبقى متشككًا لأنه ملتصق بالمادة.

قال تعالى: { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا، أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } [مريم: ٦٦-٦٧]

وقال سبحانه: { أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ، بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ، يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ، كَلاَّ لا وَزَرَ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ، يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ، بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ } [القيامة: ٣-١٥]

لا عذر لك أيها الإنسان بعد ما تقدم، فأنت مبصر ومهيَّأٌ بالأدوات، لكنك آليت واخترت أن تكون الأسوأ من الحيوانات.. لكنك أنت الذي اخترت أن تكون عبد شهوتك، وعبد غريزتك، وعبد رغباتك... فلا عذر لك أيها الإنسان بعد كل هذا.

وقال تعالى: { أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } [القيامة: ٣٦] لا..

وقال سبحانه: { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

وقال: { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ } أي: يجب المكابدة والشدة، { أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ } [البلد: ٤-٥] فالإنسان بجبلته الإنسانية مصارع، ويتطاول ويتوهم أنه قادر على مصارعة أمر ربه.

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ } فيا ليته استخدم طبع الشدة لإحقاق الحق.

أبو بكر رضي الله عنه كان مربوع القامة، نحيل الجسم، فأمسك بعُمرَ العملاق، وقال له: يا عمر، أجبَّار في الجاهلية خوَّار في الإسلام؟

من قوّاك يا أبا بكر؟

إنه الحق.. إنه الكَبَد.. إنها الشدّة التي يستطيع الإنسان بها أن يخيف العمالقة، حينما يعتز بالله، وحينما يتقوى بالله...

طبعُ الشدة ليس مذمومًا حين يوظَّفُ لخدمة الحقّ.

ووقف على المنبر وقال: القويُّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحقّ، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى آخذ له الحقّ.

أنت شديدٌ في طبعك، فوظِّف شدَّتَك حتى لا تكون كالأغنام تُساق إلى الجزار لتذبح وهي خانعة ذليلة.

وأختم بقوله تعالى: { قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ، كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } [عبس:١٧-٢٣].

وهذا النص جامع للأمور الثلاثة: **الخلق، والتكليف، والمآل**، فجمع في نصٍّ واحد الأمور الثلاثة:

- فتحدث عن الخلق بقوله: { مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ } .
- وتحدث عن التكليف بقوله: { كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } .
- وتحدث عن المآل بقوله: { ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ } .

اللهم ذكرنا بحقائق القرآن، واجعلنا تلاميذ القرآن، ورُدَّنا إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.